

فلسفة الجمال والفن عند أرسطو طاليس

Aristotle

حياته (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.)

ولد أرسطو في (أسطاغير) في مقاطعة مقدونيا. وقضى فيها أيامه الأولى. وكان والده طبيباً في بلاط ملك مقدونيا. وعندما بلغ أرسطو الثامنة عشرة من عمره قدم إلى أثينا لاستكمال علمه، والتحق بأكاديمية أفلاطون. فكان تلميذاً لامعاً تحت إشراف أستاذ لا يضاهاه، وبرزت عبقرية أرسطو بين أقرانه في الاكاديمية، فأطلق عليه أفلاطون اسم (العقل) لذكائه الخارق و (الفراء) لاطلاعه الواسع.

بدأ أرسطو فلسفته متأثراً بأستاذه أفلاطون، ولكن ما لبث أن بدا يعارضه وينقد نظرية المثل الأفلاطونية، ولم يدع قولاً لأفلاطون إلا وتناوله بالتجريح، معللاً ذلك بقوله: " إنني أحب أفلاطون، وأحب الحق، وأحب الحق أكثر من أفلاطون". والحقيقة ان ارسطو سيطر على الفكر الأوربي طوال القرون الوسطى وحتى مطلع العصر الحديث، ولم يكن عصر النهضة الا ثورة على ارسطو (حسب تعبير بعض من نقاد الفكر الفلسفي).

عهد إليه الملك فيليب (ملك مقدونيا) بتعليم ابنه الاسكندر البالغ من العمر ثلاث عشر سنة. وعندما شبَّ الاسكندر عن الطوق (بلغ السابعة عشرة من عمره)، وشارك الجيش في حروبه، وذاق لذة النصر والانتصار، حتى تباعدت الصلة بينه وبين معلمه أرسطو. فعاد أرسطو إلى أثينا، وأنشأ فيها مدرسة، وكان من عاداته أن يُلقى محاضراته ماشياً، لذا سُمي واتباعه بالمشائين. وبعد موت الاسكندر، بدا الحزب الوطني الأثيني يحارب المقدونيين والأجانب، وحاربوا أرسطو غيرة وحسداً، ولجأوا إلى حيلة طالما اصطنعوها من قبل، فاتهموه بالإلحاد. فهرب أرسطو من أثينا وهو يقول متهماً: " لا داعي لان أهىي للأثينيين فرصة أخرى للإجرام ضد الفلسفة " مشيراً بذلك إلى إعدام سقراط.

فلسفة أرسطو العامة

منهج أرسطو مع غلبة الطابع التأملي على فكر أرسطو وفلسفته، إلا أنه قد حدَّ من غلو المنهج الجدلي الأفلاطوني، ووضع أصول المنهج الواقعي لإيمانه بتراكم بناء المعرفة والانتقال في تحليله المنهجي المنطقي من الجزء إلى الكل، لان "المحسوس عنده شرط المعقول"، ومن أهم قواعد المنهج في فلسفته " أنه لا بد من إثبات وجود الشيء قبل البحث عن ماهيته ". أي إدراك المادة قبل إدراك مفهومها او تعبيراتها، لان العكس سيُدفعنا للبحث عن تصورات ذهنية محضة لا حقيقة وجودية لها، أو عن أوهام كالغول والعنقاء.

المنطق

لأرسطو تأثيراً كبيراً في الفكر الفلسفي اليوناني وغير اليوناني، فهو المؤسس الأول لعلم المنطق، ويُسمى المعلم الأول لأنه اول من علم المنطق. وكانت أقواله تتخذ حججا يرجع إليها رجال الفكر في حل خلافاتهم الفكرية. ويعني المنطق علم الفكر وهو "الفن والأسلوب والطريقة والمنهج الذي يساعدنا على تصحيح تفكيرنا. فهو نظام

وأسلوب ومنهج كل علم وكل فن". وهو الأداة الفكرية التي يستعين بها الانسان لتجنب الخطأ في تفكيره، أي انه يرشد الانسان الى تصحيح التفكير وليس هو الذي يعلم الانسان التفكير، وللمنطق ناحيتان:

١. البحث في الفكر الإنساني بقصد الاهتداء إلى قوانينه ومعرفة الشروط التي يتوقف عليها الصحيح منه.

٢. تطبيق هذه القوانين على الفكر لمعرفة الصحيح منه.

واهم ما تركه أرسطو في المنطق هو مذهبه في القياس، والقياس تدليل مؤلف من ثلاثة أجزاء "مقدمتين ونتيجة" وكلما كانت المقدمات صحيحة كانت النتائج صحيحة: مقدمة كبرى مقدمة صغرى النتيجة
كل إنسان فان سقراط إنسان إذن سقراط فان

نظرية أرسطو في المعرفة والوجود

١. وتنطلق فلسفة أرسطو من اختلافه مع أفلاطون في وجود عالم الصور الأولية القبلية (المثل). التي هي سبب وجود الأشياء، وهي ثابتة وغير متغيرة، وهي أزلية لا يعترتها تغير ولا تبدل ولا تطور، وهي تمثل صفة الكمال. والتي خالفها أرسطو وقلبها رأساً على عقب علماً انه بقي في الاتجاه المثالي نفسه. حيث عدّ أرسطو أن الموجودات الحسية في الطبيعة والوجود ما هي إلا انعكاس متماثل الصفات مع الصور الأزلية أو المثل العليا، وهي مماثلة لها في البناء والصفات. وعملية الكشف عن هذه الصفات التي تشترك بها المحسوسات الأرضية مع المثل السماوية عملية تعتمد على المقدرة العقلية الإنسانية، وكلما كانت القدرات العقلية عالية كلما كانت رؤيته للموجودات الحسية رؤية متميزة ومقترنة مع الحقائق الأصلية.

٢. وفي الوجود، يرى أرسطو أن الأجسام الطبيعية مركبة من مبدئين هما:

أ-المادة (الهيولي): وهي مادة أولية تشترك فيها جميع الأجسام.

ب-الصورة (الفورم): وتعين الهيولي وتعطيها ماهية خاصة.

وعليه يكون الوجود عند أرسطو "إما أن يكون وجوداً بالقوة، وإما أن يكون وجوداً بالفعل". فالبذرة - مثلاً وجود بالقوة، بالقياس إلى الشجرة التي هي بالفعل وهكذا فقد حصل نوع من الانتقال من حالة البذرة إلى حالة الشجرة. وهذا الانتقال هو الحركة، وبالتالي فالحركة هي التي تحرك الموجود بالقوة إلى الموجود بالفعل. فقوى التطور هي بالنمو والانتشار، هي النمو الطبيعي في الطبيعة والبيئة الملائمة، هي التطور والانتقال من البسيط السهل المتجانس إلى الكثير المعقد المتغاير والمتراكب والمختلف الأعضاء والوظائف. من النواة الى النخلة، من النطفة إلى الجنين ثم إلى الإنسان مكتمل الخلق. اذن، فالتطور محكوم، وإن الأعضاء لا تظهر اعتباراً، بل تظهر محكومة بالوظيفة، فالعضو ينشأ لأداء وظيفة معينة، حلاً لمشكلة، إجابة على سؤال، شرحاً لغامض، إشباعاً لحاجة.

ويؤكد أرسطو على أن الفورم في أي كائن ليس هو التفصيلات الزائدة العالقة به، بل هو جوهره الذي يحدد حقيقته، وهو كائن في الشيء ذاته - وهو بذلك يخالف أفلاطون الذي يرى أن الفورم يقوم في عالم عقلي - وهو الذي يطبع الشيء بالطابع الذي يجعله منتسباً إلى هذا النوع أو ذاك النوع من أنواع الكائنات. والفورم في الشيء هو

الوظيفة التي يقوم بها ذلك الشيء، فالفورم في الإنسان هو الوظيفة التي تجعل من الإنسان إنساناً والفورم في الشجرة هو الوظيفة التي تجعل من الشجرة شجرة... وهكذا. ومعنى ذلك أن الفورم هو مصدر الحركة والفاعلية والنشاط في الشيء، أي هو طبيعته وحقيقته الجوهرية. إذن فالفورم عند أرسطو هو فكرة النوع التي انطبعت بها المادة فأصبحت بها فرداً ينتمي إلى ذلك النوع.

٣. وفي المعرفة: فأول مبادئ المعرفة لدى أرسطو هو "أننا ندرك الشيء قبل إدراك ماهيته"، أي قبل أن نعي مفهومه، أي إدراك المادة قبل إدراك المفهوم لها. لا كما يقول أفلاطون "بادراك الماهية قبل إدراك الشيء".
إذن يرى أرسطو أن المحسوسات موجودات حقيقية في الذهن والحقيقة المادية بان واحد. أما إدراك الماهيات (الجواهر) فيتم بتجربتها من المادة ولواحقها وعلائقها وتفصيلاتها الزائدة. كأن ندرك أن فلاناً إنسان بعد أن ندرك موضوعه الخاص من لون وصوت أو مقدار كمي وحجمي وغيره. بمعنى الإحساس بالشيء ثم تجريد ماهيته لتعقله، وهو تأثر العقل بالماهية.

٦. العلل الأربعة

وهي الأسباب والحجج والمبادئ التي يتكون منها الشيء، وهي:

١. العلة المادية: "ما منه يكون الشيء"، وهي المادة التي صنع منها الشيء، كالخشب أو المرمر أو البرونز... أو غيرها.
٢. العلة الصورية: "ما على صورته يكون الشيء"، وهي الشكل الذي يتخذه الشيء، كالكرسي أو الطاولة أو التمثال... أو غيرها.
٣. العلة الغائية: "ما لأجله يكون الشيء"، وهي الغاية التي لأجلها صنع الشيء، لأجل الحاجة أو الراحة أو السوق... أو غيرها.
٤. العلة الفاعلة: "ما به يكون الشيء"، وهو الصانع أو الفاعل الذي بدأ عملية التغيير وحركها من حالة إلى حالة، من المادة إلى الصورة لغاية ما. وهو المهندس أو الصانع أو الفنان.
فالعتان (المادية والصورية) ذاتيتان تعملان من داخل الشيء. أما (الغائية والفاعلة) فهما خارجيتان تعملان من خارج الشيء. والعلل الأربع غايتها ومهمتها هي إخراج شيء جديد إلى الوجود من خلال إعادة تركيب أشياء معطاة قبلاً. وعليه يجب أن نوازن بين العلل الأربع، أي أن نعطي المادة الملائمة للصانع الملائم لتحقيق الغاية المطلوبة سواء كانت نفعية أو جمالية، أي "أن نعطي الخبز لخبازه".
٧. العقل عند ارسطو نوعان "عملي ونظري".

١. عقل بالقوة (عملي): وهو موجود بقوة الخلق. وخالياً من كل معرفة، ولكنه مستعد لتقبل المعرفة.
٢. العقل الفعال (نظري): وهو العقل بالفعل، ووظيفته نقل المعقولات من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، أي مجرد الماهيات والمعقولات من المحسوسات.

٨. اللذة: أعطى أرسطو أهمية للذة كنتيجة لرد فعل نفسي، وهذه النقطة يختلف فيها عما جاء به أستاذه أفلاطون الذي رفض اللذة لأنها صفة المحسوسات المتدنية. إلا أن اللذة عند أرسطو تأخذ جانباً نسبياً منطقي، فاللذة عنده ليست غاية في ذاتها كما هي عند السفسطائيين. لهذا عدّها أرسطو نسبياً باتجاه الخير أو الشر. ولما كان الإنسان يهدف إلى الخير فإن غايته الحقيقية هي تحصيل السعادة.

الفلسفة الجمالية عند أرسطو

كانت نقطة الخلاف الأساسية بين أرسطو وأستاذه أفلاطون هي في تأكيد الحس والحواس في عملية اكتساب المعرفة. فبعد أن رفضها أفلاطون وعدّها ظلالاً وزيفاً وتقليد، فقد التزمها أرسطو وذهب إلى أن المعرفة لا تتم إلا بالحواس، ومعطيات الحواس هي بداية بناء المعرفة وتشكل الذاكرة ومنها تتكون الخبرة، وللذاكرة عند أرسطو قيمة مهمة في بناء المعرفة. فالكائنات ذات الذاكرة هي الأرقى والأقدر على التعلم من الكائنات التي لا تمتلكها.

١. الفن

بإعطاء أرسطو أهمية للحس والحواس، من خلال قوله: "المحسوس شرط للمعقول"، لهذا فإن الفن يمكن أن يأخذ مادته من المحسوسات البيئية ويحاكيها. أي أن الحواس والمعرفة الحسية تقدم لنا تصورات عن الجزئيات التي تفيدنا في تحقيق بداية المعارف، أي وعي الجزء هو طريق الوعي للبناء الكلي للأشياء والمفاهيم والمعاني والتصورات. وعن طريق القياس والاستقراء والاستدلال تتم عمليات كشف للأشياء ومن ثم إعادة تركيبها لإبداع أشكال جديدة. لهذا كان الفن هو العامل الذي يكشف الجواهر أو التماثلات بين العالم الحسي والعالم العقلي. لذا فالفن الحقيقي عند أرسطو هو الذي يعمل على تنقية الروح من الشوائب والغرائز الحيوانية، عن طريق عملية تطهير تصاحبها مشاعر اللذة والنشوة والانتعاش التي تسمو بالنفس إلى المراتب العليا في البناء الأخلاقي. لهذا كانت الألحان التنقيفية هي الأرقى لأنها تؤثر على الحواس الأخلاقية، أما الألحان العملية التي تثير النشاطات، والألحان التي تثير الطرب هي الأدنى. وهنا نتساءل، كيف يكون الفن والفنان على هذا الأساس الأرسطي؟

فنجيب، يكون الفنان فناً إذا استطاع أن يصور لنا فرداً واحداً تصويراً يعبر فيه عن حقيقة النوع كله، كأن يبرز الشجاعة في شجاع، والطموح في طامح، والحكمة في حكيم، والطيبة في طيب... وهكذا. واحسب أن الفن بمعناه الكلاسيكي تطبيق أدائي يقوم على هذا الأساس. فهو أرسطي واقعي ولكن ليس محاكاة سلبية.

٢. الفنان المبدع والمبتكر

وبهذا يكون الفنان هو ذلك الإنسان الذي يستطيع الانتقال بعقله من عقل بالقوة إلى عقل بالفعل مروراً بالعقل المنفعل المكتسب للمعارف وبنائها عن طريق الحس والحواس. وتتكون لديه الخبرة لأنه يمتلك العقل النظري، فيستطيع بذلك أن يفسر الأشياء والمفاهيم والمعاني والتصورات، وأن يحل العلل الأربع للأشياء بموضوعية تطبيقية رائعة. أي الذي يكشف الجواهر الخفية في الأشياء ويعي عللها الأربع من خلال حجم ذاكرته ومستوى مخيلته، وعن طريق الاستقراء والاستدلال والاستنتاج يصل إلى البرهان. لهذا يمكن أن يكون المبدع استطاع بواسطة إمكاناته

العقلية وذاكرته ومخيلته أن يستقرئ ويستدل ويستنتج ويبرهن ويكشف العلل الأربع والجواهر المتخفية في العمل الفني وان يحلل ويركب أشكالاً جديدة.

٣. الجمال والإحساس به

عدّ أرسطو الرائع والجميل هو الشيء أو النتاج الفني الذي يحوي على:

١. الوضوح

٢. التناسب في التكوينات البنائية لأجزائه المكونة له.

٣. الترتيب، أي وجود البداية والوسط والنهاية، والترابط بين الأجزاء لتكوين وحدة منتظمة.

لهذا فالجمال عند أرسطو هو الجمال الموضوعي الذي يناغم البيئة الحسية ومشاكلها، ويحاول أن يكشف للناس المكامن الخفية من تكويناتها البيئية سواء أكانت أشكال أم مواضيع. وهو الجمال الذي يرتفع عن الماديات إلى الماهيات (الجواهر)، أو من المحسوسات إلى المعقولات. فالجميل والرائع عنده هو الموضوعي والمطلق بان واحد. أي أن الجمال عند أرسطو يرتبط بمستوى الوعي والإدراك والإحساس بالجمال درجات بحكم مستوى الوعي. فيه الجمال الحسي الذي يلبي الحاجات الحسية والغرائزية والفسلجية. وهناك الجمال والإدراك الجمالي الذي يتصاعد ويتسامى من مستوى المخيلة إلى أعلى مستوى من التجريد العقلي. لهذا فالجمال مستويات ويحتاج إلى مستويات من الإدراك لتذوقه. وهو بدرجات متسلسلة من الأدنى إلى الأعلى بفعل تطور المعارف وبنائها من الحسي ومنتهاً إلى الحدس العقلي. وبفعل الاستمتاع واللذة يكشف العلل الأربع المستقرة في الأشياء والأشكال. وهذا الكشف يحتاج إلى معرفة وخبرة أساسها متراكم معرفي مخزون في الذاكرة وتألّق في المخيلة.

٤. المحاكاة

المحاكاة عند أرسطو صفة إنسانية إيجابية، فالإنسان بطبيعته يحاكي، والمحاكاة بنظر أرسطو تحقق المعرفة، ولكن لا يقصد أرسطو بالمحاكاة أنها المحاكاة التسليمية الساذجة، وإنما هي المحاكاة التي تحقق النمو والتطور والبناء الجديد والمبتكر، أي تطوير الطبيعة نحو الأحسن، أي ليس تصوير الشيء كما هو كائن في العالم المرئي بل كما يمكن أن يكون. والفنان هو الذي يعي جوهر الأشياء ويطورها ببناء جديد ومستمر وهنا تتحقق قيمة المحاكاة. أي أن أرسطو وضع المحاكاة بدرجات ومستويات، أدناها هي المحاكاة السلبية التي تحاكي الموجود (الشيء) على ما هو عليه. وأرقاها هي المحاكاة التي تستلهم المفردات الجزئية من خلال فهم علل الأشياء وتألّق المخيلة وصولاً إلى الحدس العقلي النظري الذي ينتج الجديد المبتكر.

والفنان بذلك هو الذي يتمكن من كشف جواهر الأشياء ويحلل العلل الأربع وينتقل من الجزء البسيط إلى الكل المركب، ويبني الجمال من خلال عمليات تركيب. فالبناء هو إعادة نظام العلاقات أو السياقات ولكن ليس على الصيغة القديمة بل برؤية تصويرية جديدة تحقق الابتكار.